

تفسير ابن كثير

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ^ط قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ^ط لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ^ج
ثُقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ^ق يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا ^ط
عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

يقول تعالى : (يسألونك عن الساعة) كما قال تعالى : (يسألك الناس عن الساعة) [

الأحزاب : 63] قيل : نزلت في قريش . وقيل : في نفر من اليهود . والأول أشبه ; لأن

الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة ، استبعادا لوقوعها ، وتكديبا بوجودها ; كما

قال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) [الأنبياء : 38] ، وقال تعالى :

(يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن

الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) [الشورى : 18] وقوله : (أيان مرساها) قال

علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : " منتهاها " أي : متى محطها ؟ وأيان آخر مدة الدنيا

الذي هو أول وقت الساعة ؟ (قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو) أمر تعالى

نبيه صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة ، أن يرد علمها إلى الله تعالى ; فإنه هو

الذي يجعلها لوقتها ، أي : يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، [أي] لا يعلم ذلك [أحد] إلا هو تعالى ؛ ولهذا قال : (ثقلت في السماوات والأرض) قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة في قوله : (ثقلت في السماوات والأرض) قال : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون . قال معمر : قال الحسن : إذا جاءت ، ثقلت على أهل السماوات والأرض ، يقول : كبرت عليهم . وقال الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : (ثقلت في السماوات والأرض) قال : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وقال ابن جريج : (ثقلت في السماوات والأرض) قال : إذا جاءت انشقت السماء وانتشرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قاله الله ، عز وجل فذلك ثقلها . واختار ابن جرير ، رحمه الله : أن المراد : ثقل علم وقتها على أهل السماوات والأرض ، كما قال قتادة . وهو كما قالاه ، كقوله تعالى : (لا تأتيكم إلا بغتة) ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السماوات والأرض ، والله أعلم . وقال السدي [في قوله تعالى] (ثقلت في السماوات والأرض) يقول : خفيت في السماوات والأرض ، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل . (لا تأتيكم إلا بغتة) [قال]

يبتغتهم قيامها ، تأتيهم على غفلة . وقال قتادة في قوله تعالى : (لا تأتيكم إلا بغتة) قضى الله أنها (لا تأتيكم إلا بغتة) قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الساعة تهيج بالناس ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه " وقال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقي فيه . ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها " وقال مسلم في صحيحه : حدثني زهير بن حرب ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة . والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم .

والرجل يلو ط حوضه فما يصدر حتى تقوم "وقوله [تعالى] (يسألونك كأنك حفي عنها)
اختلف المفسرون في معناه ، فقيل : معناه : كما قال العوفي عن ابن عباس : (يسألونك
كأنك حفي عنها) يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم . قال ابن عباس :
لما سأل الناس محمدا صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن
محمدا حفي بهم ، فأوحى الله إليه : إنما علمها عنده ، استأثر بعلمها ، فلم يطلع الله عليها
ملكا مقربا ولا رسولا . وقال قتادة : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا
وبينك قرابة ، فأسر إلينا متى الساعة . فقال الله ، عز وجل : (يسألونك كأنك حفي عنها
(وكذا روي عن مجاهد ، وعكرمة ، وأبي مالك ، والسدي ، وهذا قول . والصحيح عن
مجاهد - من رواية ابن أبي نجيح وغيره - : (يسألونك كأنك حفي عنها) قال : استحفيت
عنها السؤال ، حتى علمت وقتها . وكذا قال الضحاك ، عن ابن عباس : (يسألونك كأنك
حفي عنها) يقول : كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، (قل إنما علمها عند الله) وقال
معمر ، عن بعضهم : (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن
أسلم : (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها على خلقه ، وقرأ : (

إن الله عنده علم الساعة) الآية [لقمان : 34] .ولهذا القول أرجح في المعنى من الأول ، والله أعلم ؛ ولهذا قال : (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولهذا لما جاء جبريل ، عليه السلام ، في صورة أعرابي ، يعلم الناس أمر دينهم ، فجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس السائل المسترشد ، وسأله عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل " أي : لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله عنده علم الساعة) الآية وفي رواية : فسأله عن أشراط الساعة ، ثم قال : " في خمس لا يعلمهن إلا الله " . وقرأ هذه الآية ، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب : " صدقت " ؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " وفي رواية قال : " وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها ، إلا صورته هذه " . وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد ، في أول شرح صحيح البخاري ، والله الحمد والمنة ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت

جهوري فقال : يا محمد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاء - على نحو من صوته - قال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحك إن الساعة آتية ، فما أعددت لها ؟ " قال : ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكني أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المرء مع من أحب " .

فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : " المرء مع من أحب " وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين . ففيه أنه ، عليه السلام ، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه ، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم ، وهو الاستعداد لوقوع ذلك ، والتهيؤ له قبل نزوله ، وإن لم يعرفوا تعيين وقته . ولهذا قال مسلم في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه وأبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال : " إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم " يعني بذلك موتهم الذي

يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة .ثم قال مسلم : وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يونس بن محمد ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ؛ أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة " . انفراد به مسلموحدثنا حجاج بن الشاعر ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ؛ أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة ، فقال : " إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة " - قال أنس : ذلك الغلام من أترابيوقال : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن أنس قال : مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أقراني - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة "ورواه البخاري في كتاب " الأدب " من صحيحه ، عن عمرو بن عاصم ، عن همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن أنس ؛ أن رجلا من أهل

البادية قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ فذكر الحديث ، وفي آخره : " فمر غلام للمغيرة بن شعبة " ، وذكر هو هذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقيد بـ " ساعتكم " في حديث عائشة ، رضي الله عنها . وقال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بشهر ، قال : " تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله . وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة ، تأتي عليها مائة سنة " رواه مسلموفي الصحيحين ، عن ابن عمر مثله ، قال ابن عمر : وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انخرام ذلك القرن . وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، أنبأنا العوام ، عن جبلة بن سحيم ، عن مؤثر بن عفازة عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى " ، قال : " فتذاكروا أمر الساعة " ، قال : " فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، عليه السلام ، فقال : لا علم لي بها . فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لي بها . فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال عيسى : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، عز وجل ، وفيما عهد إلي ربي ، عز وجل ، أن الدجال خارج " ، قال : " ومعني قضييان ،

فإذا رأي زاب كما يزوب الرصاص " ، قال : " فيهلكه الله ، عز وجل ، إذا رأي ،
حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافرا تعالى فاقتله " . قال : " فيهلكهم
الله ، عز وجل ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم " ، قال : " فعند ذلك يخرج يأجوج
ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ،
ولا يمرون على ماء إلا شربوه " ، قال : " ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم ، فادعو الله ، عز
وجل ، عليهم فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من تن ريحهم - أي : تنن - " قال
: " فينزل الله المطر ، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر " . قال أحمد : قال يزيد
بن هارون : ثم تنسف الجبال ، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال
: ففيما عهد إلي ري ، عز وجل ، أن ذلك إذا كان كذلك ، فإن الساعة كالحامل المتم
لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه ، عن بNDAR عن يزيد بن
هارون ، عن العوام بن حوشب بسنده ، نحوه فهو لأء أكابر أولي العزم من المرسلين ، ليس
عندهم علم بوقت الساعة على التعيين ، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام ، فتكلم
على أشراطها ؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذا لأحكام رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ويقتل المسيح الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ،
فأخبر بما أعلمه الله تعالى به . وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا عبيد
الله بن إيراد بن لقيط قال : سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال : سئل رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن الساعة فقال : " علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ولكن سأخبركم
بمشاريطها ، وما يكون بين يديها : إن بين يديها فتنة وهرجا " ، قالوا : يا رسول الله ،
الفتنة قد عرفناها ، فالهرج ما هو ؟ قال بلسان الحبشة : " القتل " . قال ويلقى بين الناس
التناكر ، فلا يكاد أحد يعرف أحدا " لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا
الوجه . وقال وكيع : حدثنا ابن أبي خالد ، عن طارق بن شهاب ، قال : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت : (يسألونك عن الساعة
أيان مرساها) الآية [النازعات : 42] . ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس ، عن
إسماعيل بن أبي خالد ، به وهذا إسناد جيد قوي . فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم [
محمد] صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والعاقب
والمقفى ، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من

حديث أنس وسهل بن سعد ، رضي الله عنهما : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وقرن بين
إصبعيه السبابة والتي تليها . ومع هذا كله ، قد أمره الله تعالى أن يرد علم وقت الساعة إليه
إذا سئل عنها ، فقال : (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون)